تعليق على رسالة

حسن الخلق للسعدي

للإمام

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

(المتوفى: ١٣٧٦هـ)

- رحمه الله -

لفضيلة الشيخ

عبد الرازق بن عبد المحسن البدر

- حفظه الله -

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله -صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين-.

أما بعد؛

المتن

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- في كلامه على "حسن الخلق":

بسم الله الرحمن الرحيم

كَم في الكتاب والسنة من النصوص الحاثَّة على حسن الخلق، المثنية على أصحابه، الذاكرة ما لهم من الفضائل والفواضل، وذلك لَما اشتملت عليه من الخلق الجميل، وما يترتب عليهم من المنافع والمصالح العامة والخاصة.

فمن أجل فوائده امتثال أمر الله وأمر رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والاقتداء بخلق النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- العظيم، وأنه في نفسه عبادة عظيمة تتناول من زمان العبد وقتًا طويلًا، وهو في راحة ونعيم مع حصول الأجر العظيم.

ومن فوائده: أنه يُحبِّب صاحبه للقريب والبعيد، ويجعل العدو صديقًا، والبعيد قريبًا، وبه يتمكن الداعي إلى الله -تَعَالَى- والمعلم للخير من دعوته، ويجمع الخلق إليه بقلوب راغبة، وقبول واستعداد لوجود السبب وانتفاء المانع، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

الشرح

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذه رسالة مختصرة في باب الأخلاق من حيث فوائد الأخلاق وآثارها العظيمة، ومن حيث الطرق التي تُحصَّل بها الأخلاق الفاضلة، فإن هذه الرسالة مع وجازتها واختصارها حوت خيرا عظيما وفوائد جليلة في باب الأخلاق حثا عليها وبيانا لطرق اكتسابها وتحصيلها.

ضُمِّنت مجموعا للشيخ طُبع بعنوان **(الفتاوى السعدية)** جاءت هذه الرسالة في ضمن هذا المجموع الحافل.

وبما أننا نستقبل عيدا عظيما مباركا يحرص كثير منا على تقديم العيدية في هذا العيد، فأنا أقترح أن تكون هذه الرسالة عيدية ننشرها في هذا العيد المبارك، كل يُهدي منها ما تيسر لأقاربه وزواره وإخوانه ومحبيه؛ لأن العيد موطن للأخلاق الفاضلة وموطن للتحاب والتآلف وتنمية الأخلاق الكريمة العظيمة المباركة، وهذه الرسالة ما تأخذ وقتا من قارئها ولا تكلفه، لكنها تنفع نفعا عظيما، فأقترح أن تكون هذه الرسالة عيدية نحرص على تداولها ونشرها إما ورقيا أو إلكترونيا، وأسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يختم لنا جميعا شهرنا المبارك بالعفو والغفران والعتق من النيران، وأن يغنمنا خيرات هذا الشهر وبركاته، وأن يجعلنا ممن فاز فيه برضوان الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- ومغفرته جل في علاه.

هذه الرسالة للإمام ابن سعدي -رحمة الله عليه- تركزت على بابين في الأخلاق:

الأول: ذكر فضائل الأخلاق وفوائدها وآثارها العظيمة على المسلم الخلوق في دنياه وأخراه.

وفي معرفة فضائل الأخلاق تشويق للمسلم للتحلي بها والتزين بها؛ لأن الأخلاق هي الزينة والجمال.

والأمر الثاني الذي تركزت عليه هذه الرسالة: بيان الأمور والوسائل المعينة على اكتساب الأخلاق الفاضلة.

فهو شوَّق أولا للأخلاق ببيان فضائلها، ثم وجَّه ثانيا إلى طرق اكتساب الأخلاق وتحصيلها ونيلها.

ذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- في صدر هذه الرسالة المباركة أن النصوص الحاثة على الأخلاق في الكتاب والسنة كثيرة، فكم في كتاب الله وسنة رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من النصوص الحاثَّة على حسن الخلق، المثنية على أصحابه، الذاكرة ما لهم من الفضائل والكرامات والخيرات العديدة في الدنيا والآخرة.

ثم شرع -رَحِمَهُ اللَّهُ- في بيان شيء من فوائد الأخلاق وآثارها على المتخلق بها، فذكر منها: أن تخلق المسلم بالأخلاق الفاضلة لو لم يكن فيه إلا أنه ممتثل لأمر الله ومطيع له ومتبع لرسوله -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ- لكفى به شرفا ورفعة، فهذا الامتثال لأمر الله وأمر رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والاقتداء بالنبي الكريم -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ- فإنه كان أتم الناس خلقا وأكملهم أدبا -صلوات الله وسلامه

عليه- وقد قال الله -تَعَالَى-: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١].

أيضا الخلق نفسه عبادة وقربة لله، يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: **(وأنه في نفسه عبادة عظيمة)**، فالخلق عبادة؛ ولهذا ينبغي على كل من يكرمه الله بالتخلق بالأخلاق الفاضلة أن يقصد التعبد والتقرب إلى الله؛ لأن الخلق الفاضل لا يدخل في صالح عمل المرء الذي ينال عليه الثواب عند الله إلا إذا قصد به التقرب إلى الله ونوى هذه النية، كما قال -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ-: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»**، ولهذا ينبغي على المسلم أن يستحضر هذا المعنى الجليل: أن الخلق الفاضل عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- ويرجو عظيم موعوده، وقد سئل -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ- عن أعظم ما يدخل به الناس الجنة قال: **«تقوى الله وحسن الخلق»**.

وذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ- من فوائد حسن الخلق -وهي فائدة عجيبة وعظيمة- أن حسن الخلق في راحة، ومفهوم ذلك أن سيئ الخلق مفارق للراحة، الأخلاق الفاسدة لا تجلب راحة لصاحبها، بل تجلب له عناء وشقاء ونكدا، ولهذا يؤثر عن علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنه قال: "لا راحة لحسود"، الحسود لا يمكن أن يرتاح، ولا يمكن أن تقر له عين، كيف تقر له عين وقلبه كلما رأى نعمة في الآخرين أخذ يغلي حسدا، بينما الخلوق في راحة، وهذه الراحة نعمة معجَّلة.

قال: **(ومن فوائده: أنه يُحبِّب صاحبه للقريب والبعيد)**، وهذا أيضا من فوائد حسن الخلق: أنه يحبب المرء الخلوق للناس، يحبونه ويألفونه، بخلاف سيئ الخلف؛ فإنه غير محبوب عند الناس؛ ولهذا في كلمة علي المتقدمة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: "لا راحة لحسود، ولا محبة لسيء الخلق"، سيء الخلق لسوء خلقه الناس تنفر منه ولا تحبه، بينما الخلوق أخلاقه الفاضلة تجذب قلوب الناس إليه وتحببهم إليه، فمن فوائد حسن الخلق **(أنه يُحبِّب صاحبه للقريب والبعيد ويجعل العدو صديقًا، والبعيد قريبًا)**، اقرأ في هذا قول الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: ٣٤] يعني: كأنه صديق من أعز الأصدقاء، قال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الدفع بالتي هي أحسن هذا خلق رفيع، من

الذي يقوى عليه؟ في الشدائد وفي الصدمات وفي الأزمات وفي المواقف الصعبة من هذا الذي يستطيع أن يدفع بالتي هي أحسن؟ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت: ٣٥].

فهذا من فوائد الخلق العظيمة.

أيضا في باب الدعوة إلى الله والتعليم ونصح الناس وإرشادهم يتمكن المرء بالخلق الفاضل أن يوصل إلى قلوبهم الخير؛ لأن المتحدث والواعظ والناصح والخطيب إذا كان سيء خلق فإن سوء خلقه يحول بين قلوب الناس وقبول دعوته، حتى وإن كان الذي يقوله حق وجميل ونصح، لكن سوء الخلق يعكِّر صفو التلقي، وقد قال الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- لنبيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

فالغلظة تسبب نفرة وعدم ارتياح، ولهذا في باب التعليم والدعوة إلى الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- حسن الخلق يساعد على انتشارها.

هناك أمر مؤسف: كثير من البدع والضلالات نفقها أصحابها وروجها أصحابها بالخلق، يعامل الناس بأخلاق جميلة طيبة حسنة يقف معهم، يعطف عليهم، ثم يدس بدعته، كل ينفق مما عنده، وكل إناء بما فيه ينضح، فكم رُوِّجت بدع، وأهل الحق أولى وأجدر أن يكونوا في نشرهم للحق ودعوتهم للحق ونشرهم للسنة متحلين بالأخلاق الفاضلة الكريمة حتى ترتاح النفوس وتطمئن إليهم وترتاح لسماعهم، فالخلق الفاضل مساعد قوي جدا في نشر الدعوة ونفع الناس، يقول الشيخ: **(وبه يتمكن الداعي إلى الله -تَعَالَى- والمعلم للخير من دعوته، ويجمع الخلق إليه بقلوب راغبة، وقبول واستعداد لوجود السبب وانتفاء المانع)** ومن أعظم الأسباب: حسن الخلق، ومن أعظم الموانع: سوء الخلق والغلظة والفظاظة.

المتن

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وهو بنفسه إحسان قد يزيد عن الإحسان المالي، **«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم حسن الخلق»**، فمتى اجتمع الأمران فهو الكمال، ومتى فُقد الإحسان المالي، ناب عنه حسن الخلق والإحسان الحاليّ والمقاليّ، فربما صار له موقع أكبر من نفع المال.

الشرح

الإحسان -كما هو واضح في عرض الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ- نوعان: إحسان مالي، إحسان بالمال.

وإحسان بالتعامل بالخلق وباللطف باللين، هذا جانب عظيم مهم في باب الإحسان، فالخلق هو بنفسه إحسان، من تعامله بالأخلاق الفاضلة أنت تُحسن إليه إحسانا عظيمة، وإحسانك إليه هو صدقة منك، «الكلمة الطيبة صدقة»، فإحسانك إليه باللطف، بالبشاشة، بحسن الكلام، بالمعاملة الطيبة، بالبعد عن الفظاظة والغلظة، هذا الخلق هو بحد ذاته إحسان، هو بنفسه إحسان قد يزيد على الإحسان المالي؛ ولهذا بعض الأشخاص قد يقصد شخصا في حاجة مالية فيقدم له من أتاه اعتذارا لطيفا يكون أوقع في قلبه من المال لو أعطاه إياه، في قوة اللطف وجمال الخلق وحسن الاعتذار.

وبالمقابل قد يأتي شخص إلى آخر في حاجة فيعطيه المال لكن بنفس سيئة فربما أخذه وربما رده، وربما اضطر إليه اضطرارا مع كراهيته لليد التي مدت هذا المال بهذه الفظاظة؛ ولهذا الشيخ يقول: قد يفوق الإحسان المال وقد يغني عنه يعوض عنه، واستشهد لذلك بالحديث: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم حسن الخلق».

المتن

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وبالخلق الحسن وطمأنينة القلب وراحته، يتمكن من معرفة العلوم التي سعى لإدراكها، والمعارف التي يفكر من تحصيلها، وبه يتمكن المناظر والمخاصم من إبداء حجته، وفهم حجة صاحبه، ويسترشد بذلك إلى الصواب قولا وعملا، وكما أنه سبب لهذين الأمرين في نفسه، فهو من أقوى الدواعي لحصولها لمن خاصمه أو ناظره، «إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

الشرح

يقول الشيخ: **(وبالخلق الحسن)** الخلق منه ما يتعلق بالقلب مثل الصبر، الحلم، أيضا الأناة، عدم العجلة، ترك الملل والضجر، فهذه الأخلاق الفاضلة مثل ما ذكر الشيخ يتمكن من خلالها التوسع في العلوم والمعارف، بينما إذا كان ملولا غير صبور فإنه لا يتمكن من العلم؛ لأن ملله وقلة صبره يعوقه عن ذلك، فلا يستطيع الملول مآخاة طلاب العلم في جلدهم وصبرهم على العلم وتحصيله، ولهذا في كلمة علي بن أبي طالب التي أشرت إليها له فيها أيضا ثالثة قال: "ولا إخاء لملول"، فالملول يمل عند أدنى شيء، سواء في صحبة الإخوان أو في طلب العلم أيضا وتحصيله يمل فينقطع.

فإذن الخلق **(الصبر والأناة والحلم وعدم العجلة)** يساعد على التعلم والفهم.

أيضا في باب المناظرات إذا لم يكن عنده حسن خلق فإن ما فيه من ضيق العطن والانفعال الشديد يعوق بينه وبين إيصال ما عنده من الفائدة للآخرين، ويعوق أيضا -مثلما أشار الشيخ- من قبول الخصم أو المخالف للحق الذي عنده، إذا كان لا يتعامل بالأخلاق الفاضلة فإن هذا يعوق استفادة الطرف الآخر مما عنده من خير.

المتن

قال: وبالخلق الحسن يسلم العبد من مضار العجلة والطيش، لرزانته وصبره ونظره لكل ما يمكن من الاحتمالات، وتجنب ما يخشى ضرره.

الشرح

وهذه فائدة عظيمة جدا لحسن الخلق أنه يقيه من المضار؛ لأن العجلة والطيش والتسرع والاندفاع مضارها عظيمة وجناياتها كثيرة، سواء في مصالح المرء الدينية أو مصالحه الدنيوية، يقول ابن مسعود: "إنها ستكون أمور مشتبهات، فعليكم بالأناة، فإنك أن تكون تابعا في الخير خير من أن تكون رأسا في الشر"، لو أن الإنسان في فتنة من الفتن تعجل وقرر قرارا وأبدى رأيا وانتصر له وصار له أتباع في ذلك الرأي وهو على باطل، أصبح إماما في الشر بسبب عجلته واندفاعه وتسرعه، لكن الأناة، الحلم، الهدوء، الروية، بعد النظر، التأمل في عواقب الأمور، هذه الأخلاق الكريمة تقي الإنسان من مضار العجلة والطيش.

المتن

وبالخلق الحسن يتمكن من الوفاء بالحقوق الواجبة والمستحبة للأهل والأولاد والأقارب والأصحاب والجيران والمعاملين وسائر من بينه وبينه مخالطة أو حق، فكم من حقوق أضيعت من جراء سوء الخلق.

الشرح

نعم، الخلق وسعة الصدر يساعد المرء فعلا على تحقيق والقيام بالحقوق الواجبة، بينما الرعونة والفظاظة وسوء الخلق يعوق المرء إعاقة شديدة عن أداء هذه الحقوق، فكم ضُيِّعت من حقوق بسبب سوء خلق المرء.

المتن

وإن حسن الخلق ليدعو لصفة الإنصاف؛ فإن صاحب الخلق الحسن يسلم غالبًا من الانتصار لنفسه، والتعصب لقوله؛ لأن الانتصار للنفس والتعصب يحمل على الاعتساف وعدم الإنصاف.

الشرح

وهذه فائدة، يعني الخلق الحسن يحمل صاحبه على الإنصاف مع الآخرين والعدل؛ لما يتمتع به من أخلاق فاضلة كريمة، فإن الخلق الحسن يمنع صاحبه من الانتصار للنفس كيفما كان، بل يكون منتصرا للحق لينا في التعامل رفيقا مع الناس.

المتن

وإن صاحب الخلق الحسن في راحة حاضرة ونعيم عاجل، فإن قلبه مطمئن ونفسه ساكنة، وهذا مادة الراحة العاجلة وطيب العيش.

الشرح

وهذا تقدم معناه عند الشيخ.

المتن

كما أن سيء الخلق في شقاء حاضر وعذاب مستمر ونزاع ظاهري وباطني مع نفسه وأولاده ومخالطيه يشوش عليه حياته ويكدِّر أوقاته، مع ما يترتب مع ذلك من فوات تلك الآثار الطيبة، والتعرض لضدها، وبهذا ونحوه يتبين معنى قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إن العبد لا يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

الشرح

هذا حديث عظيم جدا في بيان فضل حسن الخلق، وهو حديث صحيح ثابت عن نبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ-: «إن العبد لا يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»، وهذا يدل على مكانة الخلق في الإسلام ومنزلته العلية وفضله وثوابه العظيم عند الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- وأن صاحب الخلق الحسن يفوز به عند الله بالمراتب العالية والمنازل الرفيعة في الجنة.

المتن

فإن قلت: إذا كان حسن الخلق له هذه الفضائل والآثار الحسنة فهل للاتصاف به أسباب يتمكن العبد من فعلها؟ أو هو مجرد موهبة؟

الشرح

الشيخ -رَحمةُ اللَّه عليه- فيما تقدم شوّق لحسن الخلق ببعض فضائله وفوائده وآثاره.

فلما اشتاقت القلوب لأن تكون من أهل هذا الخلق الحسن، شرع -رَحِمَهُ اللَّهُ- في بيان الأسباب التي تعين المرء على حسن الخلق، وهذا جانب مهم يحتاج أن يقف عليه المسلم حتى تكون هذه الأشياء التي يذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- روافد له تعينه على التحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة.

وقد ذكر حقيقة كلاما عظيما جدا في وسائل تحصيل واكتساب الأخلاق الفاضلة.

المتن

قلت: ما من صفةٍ حميدةٍ ظاهرة أو باطنة، إلا وقد يسّرَ الله للعبد حصولها، ونهّجَ الطرق الموصلة إليها، وأعان عليها بكل وسيلة، وكلما كَمُلت الصفات، كثرت الطرق المُفضيةِ إليها، مع أن الغرائز والطبائع الأصلية أعظم العون عليها، وصاحبها إذا سعى لها أدنى سعي أدرك مُراده.

الشرح

نعم، يعني: لا يمكن أن يكون الله -جَلَّ في علاه- يحث على الخلق الفاضل ويرتب عليه أيضا الثواب العظيم والفضل الجزيل ويكون الوصول إليه متعذر أو غير ممكن، أو الطريق إليه ليس سهلا، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- لما حث عباده على الأخلاق الحميدة الفاضلة الظاهرة والباطنة يسَّرها للعباد ونهَّج الطرق الموصلة إليها وأعان عليها بكل وسيلة، ويكفي في هذا قول النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يُعطه، ومن يتوق الشر يوقه»، والله -جَلَّ وَعَلَا- يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

ثم تأمل قول الشيخ -رَحمة الله عليه-: **(وكلما كَمُلت الصفات، كثرت الطرق المُفضيةِ إليها)** وهذا من فضل الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- فالخلق من الصفات الكاملة العظيمة الفاضلة؛ ولهذا وسائل تحصيله واكتسابه متيسرة ويسيرة بإذن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- على من يسرها الله عليه.

المتن

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: فاعلم أنه من أعظم ما يعين على هذا الخلق الجميل، التفكر في الآثار السابقة المترتبة عليه، فإن معرفة ثمرات أشياء وحُسنَ عواقبها، من أكبر الدواعي إلى فعلها والسعي إليها، وإن عَظُمَ الأمر واعترضت الصعوبات، فإن المَرارات إذا أفضت إلى ضدها هانت وحَلَتْ، وكلما تصَعّبت النفس عليه،

ذكّرها تلك الآثار، وما تجتني بالصبر من الثمار، فإنها تلين وتنقاد طائعة منشرحة الصدر، محتسبة راجية حصول تلك المطالب.

الشرح

هذا الأمر الأول فيما يعين على التحلي بالأخلاق الفاضلة: أن يحرص المسلم على القراءة في فضائل الأخلاق، وفضائل الآداب وما يترتب عليها من الأجور والثواب عن الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- يقرأ في ذلك ما كتبه أهل العلم من المختصرات وأيضا ما كتبه أهل العلم في هذا من المطولات، ومن أحسنها وأوفاها وأجمعها: كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري في مجلد كبير.

فالقراءة في هذه الكتب بحيث يقف المسلم على فضل الخلق وثماره وآثاره سواء في فضل الخلق عموما أو في الفضائل الخاصة بكل خُلق؛ لأن الصبر له فضائل، الحلم له فضائل، العفة لها فضائل، الكرم له فضائل، وهكذا.

فهناك فضائل تجمع الأخلاق كلها، وهناك فضائل أيضا لأفراد الأخلاق وأنواعه، فيحرص المسلم على أن يقرأ وأن يقف على فضائل الخلق؛ لأن هذه الفضائل كلما أعادها على نفسه تشوقت نفسه إلى التحلي بهذه الأخلاق، وإذا واجهته مرارات في بدايات تحليه بالأخلاق الفاضلة يُذهب هذه المرارات بالفضائل فضائل الأخلاق؛ حتى تعظم النفس شوقا للتحلي بالأخلاق والتمسك بها.

المتن

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: ومن أعظم أسبابِ علو الهمة ورغبة العبد في مكارم الأخلاق، وأنها أُولى ما اكتسبته النفوس وأجلُّ غنيمة غنمها الموفّقون، فبحسب قوة رغبته في ذلك يسهل عليه نيل هذا الخلق الجميل.

الشرح

نعم، هذا أيضا من الأسباب: أن ينهض المرء بهمته بأن تكون همته عالية وهمته شريفة ورفيعة، وفي الدعاء المأثور عن نبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ-: «اللّهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد»، فعلو الهمة بأن يكون عنده عزيمة قوية؛ لأن ضعف الهمة وضعف العزيمة يثني المرء عن التحلي بالأخلاق، قد يسمع بها، تُعجبه، يرى أنها جميلة، لكن عزيمته فاترة وهمته ضعيفة، فعلو الهمة وقوة العزيمة والمجاهدة للنفس يبلغ به المرء بإذن الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- التحلي بالأخلاق الفاضلة.

المتن

ومن الأسباب أن يتأمل، هل يجلب له سوء الخلق إلا الأسف الدائم والهم الملازم والآثار القبيحة؟! فيربأ بنفسه عن هذا الخُلق الذميم.

الشرح

هذا أيضا باب آخر مهم يعين على التحلي بالأخلاق الفاضلة: أن ينظر المرء سواء في نفسه هو إن كان عنده سوء خلق، أو في الآخرين أي شيء جر عليهم سوء خلقهم، وكم من الأمور والمضار التي ترتبت على سوء الخلق، فيربأ بنفسه أن يكون سيئ الخلق.

فإذن كما أنه يحتاج إلى القراءة في فضائل الأخلاق حتى يتحلى بها، يحتاج أيضا إلى نظر في مساوئ الأخلاق ومضارها حتى يتجنبها، فهو يحتاج إلى هذا وهذا، يحتاج إلى معرفة بفضائل الأخلاق للتحلي، ومعرفة بمساوئ الأخلاق ومضارها للتخلي عنها وتركها والبعد عنها.

وفي الدعاء المأثور: «اللّٰهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت».

أشير إلى فائدتين ثم نواصل مع الشيخ، أو أمرين من الأمور المعينة على التحلي بالأخلاق:

صحبة الأخيار، صحبة أهل الأخلاق الفاضلة وإلزام النفس بمرافقتهم حتى يأخذ من أخلاقهم ويتأدب بآدابهم، فيصحبهم، يصحب الحاضرين مرافقة لهم، ويصحب الأموات قراءة لسيرهم، ولهذا كم هو نافع جدا أن تقرأ في سير الصحابة، في سير التابعين، في سير أتباع التابعين، في سير أئمة الهدى، تقرأ في سيرهم وأخلاقهم، فهذه القراءة في سير هؤلاء معينة جدا على الأخلاق، وقد قيل:

كـــرر عـــليَّ حـــديثهم يـــا حـــادي فحـــديثهم يجلـــو الفـــؤاد الصـــادي

فعلا عندما يقرأ في سير الأئمة والأعلام والصحابة والتابعين وسير الأنبياء قبل ذلك هذا من أعظم الأمور التي تعين على التحلي بالأخلاق الفاضلة.

الأمر الآخر وهو مهم جدا: الدعاء، لا يمكن أن تتحلى بأي خلق إلا إذا أعانك الله عليه، ولا يمكن أن تتصف بأي صفة فاضلة إلا إذا يسرها الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- لك، ولهذا يفزع المرء دائما إلى الله -سُبْحَانَهُ

وتَعَالَى- بالدعاء أن يعينه على الأخلاق الكريمة الفاضلة، وأن يُعيذه من سيئها، وفي الدعاء المأثور: «اللَّهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء».

المتن

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: ومن الأسباب رياضة النفس وتمرينها على هذا الخلق، وتوطينها على كل سبب يُدرَكُ به هذا الخلق الفاضل، فيوطنها على معارضات الأقوال، وأنه لابد من مخالفتهم في العلوم والإرادات، ولابد أيضًا من أذيةٍ قولية أو فعلية، فليتوطن على تحمل الأذى، وليعلم أن الأذى القولي لا يضر إلا من قاله، وإن من الحزم والقوة أن يكون الإنسان بحيث لا يتأثر بكلامٍ يُقْصَدُ به إخفاضه وإغضابه، بل يُعلمُ أنه إذا غضب أو تأثّر فقد أعان المُتكلم على نفسه، وإلا لم يبالي به، ولم يلقِهِ باله ولم يهتم به ويكترثُ به، فقد قابل القائل بما يكرهه؛ لأن جُلَّ مقصد عدوه إيلامَ قلبه، وإدخال الهم والغم والخوف على قلبه، فكما يسعى بدفع ما يريد إيلامَ ظاهره، فليسعى بدفع ما يريد إيلامَ باطنه، بترك الاهتمام به.

الشرح

هذا أيضا أمر مهم في الأمور المعينة على اكتساب الأخلاق الفاضلة: رياضة النفس وتمرينها، فالنفس تحتاج إلى تمرين، مثلما أن المرء إذا كان ضعيف البدن وأخذ يمرن نفسه بالرياضات المعروفة المشي ونحو ذلك كيف أن بدنه يقوى بهذه الرياضات بعد أن كان ضعيفا، وبالإحسان في تغذية البدن، فكذلك الأخلاق، الأخلاق بالرياضة وتمرين النفس تنمو، وإلى هذا المعنى تجد الإشارة في قول الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت: ٦٩]، المجاهدة رياضة للنفس، وأيضا في قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم» فهذا المران للنفس والتدريب لها يُكسب المرء بإذن الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- الأخلاق الفاضلة.

ومن النافع جدا في هذا الباب أن المرء إذا حصل له موقف من المواقف التي تُفقد فيها الأخلاق؛ لأن هناك مواقف حقيقة تُفقد الأخلاق فيها، مواقف مزعجة مُغلقة مُقلقة جدا تُفقد الأخلاق، يعني كثير من الناس ما يصبح عنده سيطرة على نفسه وعلى خلقه، يفقد الخلق، فكم هو نافع جدا في مثل هذا الموقف أن يُدخل على نفسه شعور أنه الآن في تمرين مع نفسه دخل تمرينا الآن مع نفسه مثل شخص في الرياضات المعروفة الآن يدخل في تمرين من التمرينات فيهيئ نفسه لملاقاة من يقابله، هنا الآن يدخل نفسه في تمرين

ويُشعر نفسه الآن أنه في تمرين للنفس مع الأخلاق، ويبدأ يماشي نفسه بالهوينى يمرنها، وهذا والله نافع جدا؛ لأن النفس بحسب ما يملي عليها، إما أن يقودها وإما أن تقوده، فإن قادته أهلكته، وإن قادها أخذها بإذن الله إلى الأمان والراحة والطمأنينة.

فالأخلاق هذه في البداية تمرين وتدريب للنفس، وفي نهاية الأمر سجية، في البداية يحتاج أن يتكلف في المواقف الصعب؛ حتى يُخرج من نفسه الخلق بصعوبة ومجاهدة، إذا مضى على هذا أصبح سجية لا يعرف أصلا غيره، ولهذا تجد في من وفقهم الله -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- للأخلاق العالية المواقف الصعبة الشديدة يبرز، يعني عادة الأخلاق لا تبرز في اللقاءات المعتادة، نعم يبرز منها نوع من الخلق، لكن المواقف الصعبة هي المحك الذي يبرز فيه متانة خلق الإنسان وقوة صبره وقوة احتماله وقوة دفعه بالتي هي أحسن.

ذكرت لكم مرة قصة عجيبة جدا في هذا المجلس لعلكم تذكرونها للشيخ صالح الحصين -رَحِمَهُ اللَّهُ- الذي كان رئيسا للحرمين، يذكرها أحد مرافقيه في الحج: كان يمشي على قدميه من عرفات إلى مزدلفة، وبدون أن يشعر وهو يمشي اصطدم بامرأة تدفع أخرى بعربة أمامها، اصطدم بها ما شعر، وكانت قوية تلك المرأة، فالتفتت إليه مباشرة وشتمته وضربته ضربة قوية على صدره، فسقط الشيخ على قفاه، سقط على الأرض.

يقول المحدث الذي مع الشيخ: فقام الشيخ مبتسما ونظر إلي، وقال: الحمد لله، أخذت حقها في الدنيا، هو ما قصد أصلا أن يؤذي تلك المرأة، يقول: فقام مبتسما: وقال: الحمد لله، أخذت حقها في الدنيا، ومضى وما التفت إليها أصلا، مثل هذه الأمور ما كل أحد يستطيع أن يفعلها، على الأقل يناقشها، على الأقل يتلفت إليها، هذا ما التفت أصلا، التفت إلى صاحبه مبتسما ويقول: الحمد لله، أخذت حقها في الدنيا، وهو أصلا ما قصد إيذائها.

فأقول: في البداية تكون الأخلاق مران، لكن في النهاية تكون سجية، في الموقف الصعب لا يبرز أصلا إلا الخلق الحسن.

ومن يقرأ في سير السلف، ولعله ينهض طالب علم يجمع هذه المواقف التي يبرز فيها الخلق، كثيرة جدا في سير السلف، في مواقف صعبة ثم تجد الخلق الرفيع هو الذي يبرز للإنسان.

المتن

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وما أنفع في هذا المقام وغيره، أن يجعل الإنسان نصب عينه وجُلَّ مقصده، الإبقاء على قلبه من المشوشات والواردات المؤلمة، وأن يحفظ راحة قلبه بكل ما يُفضي من الراحة من تحصيل الأسباب المريحة للقلب، ودفع كل معارض لها، فإن راحة القلب أصل طيب العيش في هذه الدار.

الشرح

الشيخ فيما سبق ذكر حقيقة فائدة مهمة: أن بعض الناس من طبعه يحب إيذاء الآخرين، يحب إيلام الآخرين، يحب إخفاض الآخرين وانتقاصهم والازدراء بهم، موجود في الناس من هذا طبعه، فإذا بُلي المرء بأحد من هذا الصنف، فماذا عليه أن يصنع؟

يقول الشيخ: **(وإن من الحزم والقوة أن يكون الإنسان بحيث لا يتأثر بكلامٍ يُقْصَدُ به إخفاضه وإغضابه، بل يُعلمُ أنه إذا غضب أو تأثّر فقد أعان المُتكلم)**؛ لأن هذا هو طلب المتكلم أن يُغضبه ثم يُخفضه ويحط من مكانته، فليس من الحكمة أن يُعين المرء المتكلم على نفسه في إخفاضه وانتقاصه، بل يتحاشى الغضب، يتحاشى الرعونة، يتحاشى التسرع والاندفاع، فهذا فيه صيانة لنفسه وفيه أيضا عدم إعانة من أراد إيذاءه أو إخفاضه.

قال: **(وما أنفع في هذا المقام وغيره، أن يجعل الإنسان نصب عينه وجُلَّ مقصده، الإبقاء على قلبه)** يعني مرتاحا بدون مشوشات، وحفظ القلب في راحة ما يمكن إلا بالأخلاق الفاضلة والبعد عن الأخلاق الفاضلة، ولا يمكن أن يحفظ راحة قلبه إلا بهذه الأخلاق الكريمة.

المتن

فلو كان الإنسان بكل نعيم وتوفرت لديه أسباب الراحة، وقلبه في قلقٍ وحرج لا يخرج من همٍ إلا وقع في آخر، ولا يفرح بموجودٍ أو محبوبٍ إلا وجد حشو قلبه ما يكدره، فإنه حتى الآن لم يصل إلى المقصود الذي يسعى له أهل العقول الراقية، فإنهم يسعون أولًا: لراحة قلوبهم وطمأنينتها؛ بالإنابة إلى الله في مهماتهم ومُلماتهم وأحوالهم كلها، ويتممون ذلك بالحِلم وحسن الخلق وحفظ قلوبهم من كل مشوش يكدِّر عليهم حياتهم الطيبة ونعيمهم العاجل والآجل، فتأمل في بعض قصص الأخيار وما هم عليه من الحياة الطيبة، سواءً كانوا في فقر أو في غنى، أو شدة أو رخاء وحيث تنقلت بهم الأحوال، فإنك تجد الواحد منهم أبسط

الناس خلقًا وأروحهم نفسا وأقرهم عينا، بل تجد مَنْ هو في يسارة منهم وفقر، راضيًا قانِعًا غير متسخطٍ على الله وعلى الخلق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الشرح

نعم؛ لأن السعادة مدارها على راحة القلب وطمأنينته، والأخلاق الفاضلة من أعظم الأمور التي تعين على راحة القلب، والسعادة مدارها على راحة القلب، وهذه المسألة جلاها الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وتوسع في بيانها في رسالته العظيمة "الوسائل المفيدة للحياة السعيدة" في تلك الرسالة وضَّح وبيَّن أن السعادة مدارها على راحة القلب، ولهذا قد يكون -مثل ما ذكر هنا- يكون الإنسان في فقر أو في قلة ذات يد أو في مرض وهو سعيد، سعادته في راحة قلبه، وراحة قلبه في إيمانه وطاعته لربه، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨].

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علما وتوفيقا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطا مستقيما.

سُبْحَانَكَ اللهُم وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، اللهُم صَلّ وَسَلَّمَ عَلَى عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.